التنكير ودلالته البلاغية في الأربعين النسائية

دكتور

ماجدة يسري أحمد السيد

مدرس بكلية الدراسات الإسلامية والعربية

للبنات بالمنصورة - جامعة الأزهر

ملخص البحث

الحمد لله رب العالمين، الحمد لله المبتدئ بحمد نفسه قبل أن حمده حامد، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، الواحد الأحد الفرد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد، الحي القيوم الذي لا يموت ذو الجلال والإكرام والمواهب العظام، والصلاة والسلام على المرسل ر بالبيان محمد صلى الله عليه وسلم وعلى آله وصحبه أجمعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد:

فبلاغته صلى الله عليه لا تدانيها بلاغة أحد من البشر وكيف لا وقد (عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ) وقال عن نفسه صلى الله عليه وسلم "أنا أفصح العرب بيد أني من قريش".

ولعل ما دفعني إلى اختيار هذا الموضوع نيل شرف الوقوف على جانب من جوانب بلاغته صلى الله عليه وسلم. فكان عنوان بحثي (التنكير ودلالته البلاغية في الأربعين النسائية) وهي مجموعة من الأحاديث وجدتها مجموعة تختص بالمرأة وتتعلق بأمور دينها ودنياها حرصا منه صلى الله عليه وسلم على صلاح عماد المجتمع وهو المرأة، فالمرأة ليست نصف المجتمع كما يقولون بل هي المجتمع كله لو صلحت لصلح المجتمع بأكمله فجاء بحثي من هذا المنطلق.

وقد جاء البحث في مقدمة وتمهيد وثلاثة مباحث وخاتمة ثم المصادر والمراجع ثم فهرس بالموضوعات.

وقد تحدثت في المقدمة عن سبب اختياري الموضوع، وتحدثت في التمهيد عن معني التنكير ودلالته وأغراضه البلاغية المختلفة.

كذلك تحدثت عن عوامل البلاغة النبوية، ثم المبحث الأول تحدثت فيه عن تنكير المسند إليه، والمبحث الثاني عن تنكير المسند، والمبحث الثالث عن غير المسند إليه والمسند.

وتحدثت في الخاتمة عن أهم النتائج التي توصلت إليها من خلال البحث.

Summary

Praise be to Allah, the Lord of the Worlds, Who begins with praising Himself before being praised by those who praise Him. I testify that there is no god but Allah alone no partner to Him, the One and Only, the Eternal, Absolute; He begts not, nor was He begotten, and there is none like unto Him, the Alive, the Eternal, the Lord of glory, and prayer and peace be to the messenger of Allah Muhammad (Peace and blessings of Allah be upon him, his people and companions and those who followed him unto the Day of Judgment.

His eloquence (peace and blessings of Allah be upon him) is not equated to the eloquence of any of the human beings, how not while "He was taught by the One Mighty in Power". He said about himself (peace and blessings of Allah be upon him), "I am the most eloquent of all Arabs, I am of Qureish".

Perhaps what led me to choose this subject is to get the honor of standing on the aspect of his eloquence (peace and blessings be upon him). The title of my research paper is "Indefinite and Its Rhetorical Significance in the Forty Women"; a group of prophetic traditions concerned with women, their matters of religion and worldly life. These traditions were narrated because of his concern (peace and blessings be upon him) on the righteousness and integrity of the pillar of the

society, which is the women. Women are not half of society, as they say, but the whole community. As such, all my research starts from this point.

The search paper consists of an introduction, three sections, conclusion, references, and an index of topics.

In the introduction, I have investigated the reasons for which I chose this topic. Then in the following section, I have highlighted the meaning of "indefinite", its significance and different rhetorical purposes.

I have also talked about the factors of prophetic traditions eloquence. Then in the first section, I have talked about the indefiniteness of the attributed to. In the second section, I have discussed the indefiniteness of the attributed. In the third section, I have talked about the indefiniteness of lexical items other than the attributed to and the attributed. In the conclusion, I have discussed the most important findings of the research.

تمهيد:

بلاغة النبي ﷺ قد فاقت كل بلاغات البشر، فكلامه صلى الله عليه وسلم "هو الكلام الذي قلّ عدد حروفه وكثر عدد معانيه، وجلّ عن الصنعة، ونزّه عن التكلف، وكان كما قال الله تبارك وتعالى: قل يا محمد: وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ فكيف وقد عاب التشديق، وجانب أصحاب التعقيب، واستعمل المبسوط في موضع البسط، والمقصور في موضع القصر، وهجر الغريب الوحشي، ورغب عن الهجين السوقي، فلم ينطق إلا عن ميراث حكمة، ولم يتكلم إلا بكلام قد حف بالعصمة، وشيد بالتأييد، ويسر بالتوفيق. وهو الكلام الذي ألقى الله عليه المحبة، وغشاه بالقبول وجمع له بين المهابة والحلاوة، وبين حسن الأفهام"(١).

وهناك عوامل قد ساهمت في تشكيل ملامح بلاغته صلى الله عليه وسلم وهي كما ذكرها الرافعي(٢):

١- الفطرة النبوية، فكانت فطرته صلى الله عليه وسلم سليمة، لذا مكنته من معرفة أساليب العرب ومخاطبة كل قوم بلغتهم.

---

(١) البيان والتبيين: ١٣/٢ - عمرو بن بحر بن محبوب الكناني بالولاء، الليثي، أبو عثمان، الشهير بالجاحظ (المتوفى: ٢٥٥هـ) - الناشر: دار ومكتبة الهلال، بيروت - عام النشر: ١٤٢٣ هـ.

(٢) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية: ١٩٥،١٩٦،١٩٧ بتصرف. مصطفى صادق بن عبد الرزاق بن سعيد بن أحمد بن عبد القادر الرافعي (المتوفى: ١٣٥٦هـ) - الناشر: دار الكتاب العربي - بيروت - الطبعة الثامنة - ١٤٢٥ هـ - ٢٠٠٥ م.

٢- النشأة العربية الخالصة، فقد تخير الله لنبيه الكريم البيئة التي تجعله أبلغ العرب، فكان مولده في بني هاشم، وهم أفصح العرب وأخواله بني زهرة ورضاعته في بني سعد وزواجه من بني أسد.

٣- المنحة الإلهية، كان كلامه صلى الله عليه وسلم من تعليم الله له وفضله عليه، قال تعالى: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ﴾(١).

٤- الهدي القرآني، فقد كان صلى الله عليه وسلم متأثرا بالقرآن في لفظه، وفي فكره وقد قالت عنه السيدة عائشة "كان قرآنا يمشي على الأرض".

وبعد أن تحدثنا عن أسباب بلاغته صلى الله عليه وسلم نأتي إلى التنكير: فالنكرة معناها: ما شاع في أمته (٢) أو ما سوى المعرفة (٣).

والتنكير من الأبواب التي "لم يتعرض لها كثير ممن كتب في هذا الفن، وأول من فتق أكمام أزهاره صاحب الكشاف وتبعه من جاء بعده من علماء البيان"(٤).

---

(١) النساء: ١١٣.

(٢) شرح المفصل للزمخشري: ٣٥١/٣ - يعيش بن علي بن يعيش ابن أبي السرايا محمد بن علي، أبو البقاء، موفق الدين الأسدي الموصلي، المعروف بابن يعيش وبابن الصانع (المتوفى: ٦٤٣هـ) - دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان.

(٣) شرح التسهيل المسمى «تمهيد القواعد بشرح تسهيل الفوائد»:٤٤١/١ - محمد بن يوسف بن أحمد، محب الدين الحلبي ثم المصري، المعروف بناظر الجيش (المتوفى: ٧٧٨ هـ).

(٤) علوم البلاغة «البيان، المعاني، البديع»: ١٢٦ - أحمد بن مصطفى المراغي (المتوفى: ١٣٧١هـ).

وللعرب مذهب في التنكير والإبهام والإجمال، تسلكه مرة لتحقير شأن ما أبهمته وأنه عند الناطق به أهون من أن يخصه ويوضحه، ومرة لتعظيم شأنه وليؤذن أنه من عناية المتكلم والسامع بمكان "[1].

فالتنكير يأتي لأغراض متعددة منها: التعظيم والتحقير والتقليل والتكثير، والذي يحدد ذلك هو السياق.

(١) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل: ٧٤/٣ – أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله (المتوفى: ٥٣٨هـ) – الناشر: دار الكتاب العربي – بيروت – الطبعة: الثالثة – ١٤٠٧ هـ.

المبحث الأول
تنكير المسند إليه

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لاَ تُسَافِرِ المَرْأَةُ إِلَّا مَعَ ذِي مَحْرَمٍ، وَلاَ يَدْخُلُ عَلَيْهَا رَجُلٌ إِلَّا وَمَعَهَا مَحْرَمٌ»، فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَخْرُجَ فِي جَيْشِ كَذَا وَكَذَا، وَامْرَأَتِي تُرِيدُ الحَجَّ، فَقَالَ: «اخْرُجْ مَعَهَا»(١).

في هذا الحديث يبين لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن المرأة في ديننا درة مصانة، ومن مظاهر ذلك أنها لا تسافر إلا ومعها محرم، وقال الفقهاء: السفر الذي يشترط فيه المحرم هو ما كان على مسافة القصر وليس المقام مقام تفصيل لأن هذا الكلام موضعه كتب الفقه.

وقد استخدم رسول الله صلى الله عليه وسلم أسلوب القصر للتأكيد على ضرورة وجود محرم مع المرأة في سفرها، فالقصر يفيد كما قال البلغاء التوكيد والإيجاز، فهو بمثابة جملتين في جملة واحدة.

والنهي في قوله "لا تسافر" واضح وصريح، وهو بالإضافة إلى ذلك يحمل معنى النصح والإرشاد فهو صلى الله عليه وسلم – وقد علمه ربه – يعلم ما ينفع المرأة وما يضرها.

واستخدم ﷺ طريق النفي والاستثناء لأن هذا الأمر – أي ضرورة وجود محرم مع المرأة في سفرها – لم يكن معهوداً قبل ذلك، وقد ينكره المخاطب،

---

(١) صحيح البخاري: ١٩/٣– محمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري الجعفي – المحقق: محمد زهير بن ناصر الناصر– الناشر: دار طوق النجاة (مصورة عن السلطانية بإضافة ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي) الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ.

ولذا نزل منزلة من ينكر، يقول عبد القاهر: "أما الخبر بالنفي والإثبات نحو: (ما هذا إلا كذا) و (إن هو إلا كذا)، فيكون لما ينكره المخاطب ويشك فيه"(١).

ونأتي إلى التنكير في قوله "محرم" فقد أفاد الإفراد، والتعظيم يأتي من أن وجود هذا المحرم له دور عظيم لأنه ليدفع عن المرأة أهوال ومخاطر كثيرة قد تتعرض لها في سفرها، فالمحرم بمثابة حصن عظيم تحتمي به المرأة.

وكذلك النهي في قوله "ولا يدخل عليها رجل"، نهي صريح، أي على جهة الإلزام لكنه يحمل في طياته نصحا وإرشادا وذلك لأنه صلى الله عليه وسلم يعلم أنه يترتب على هذا الدخول عواقب وخيمة.

وأطلق النبي صلى الله عليه وسلم لفظ "الدخول" وأراد الخلوة، ففيه مجاز مرسل علاقته اللازمية لأن الدخول يستلزم الخلوة المحرمة والتي يكون الشطان فيها ثالثهما أو السببية؛ لأن الدخول سبب في الخلوة.

وتنكير كلمة "رجل" أريد به الإفراد، أي: أي رجل من جنس الرجال من غير المحارم.

وقوله "رجل" أي رجل أجنبي، ففيه إيجاز بحذف الصفة، وهذا من معالم بلاغته صلى الله عليه وسلم، أنه يوجز حين يقتضي المقام ذلك فمعلوم لدى السامعين أن المقصود بالرجل هو الرجل الأجنبي.

---

(١) دلائل الإعجاز: ٣٣٢ – أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الفارسي الأصل، الجرجاني الدار (المتوفى: ٤٧١هـ) – المحقق: محمود محمد شاكر أبو فهر– الناشر: مطبعة المدني بالقاهرة – دار المدني بجدة –الطبعة: الثالثة ١٤١٣هـ – ١٩٩٢م.

وقوله "اخرج معها" الأمر هنا للإباحة[١] لأنه قبل ذلك لم يكن يستطيع الخروج؛ لأنه قد كتب في جيش المسلمين فأباح له النبي صلى الله عليه وسلم الخروج مع زوجته.

عَنْ فَضَالَةَ بْنِ عُبَيْدٍ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: « ثَلَاثَةٌ لَا تَسْأَلْ عَنْهُمْ: رَجُلٌ فَارَقَ الْجَمَاعَةَ وَعَصَى إِمَامَهُ فَمَاتَ عَاصِيًا، وَأَمَةٌ أَوْ عَبْدٌ آبِقٌ مِنْ سَيِّدِهِ فَمَاتَ، وَامْرَأَةٌ غَابَ عَنْهَا زَوْجُهَا وَقَدْ كَفَاهَا مُؤْنَةَ الدُّنْيَا فَتَبَرَّجَتْ بَعْدَهُ فَلَا تَسْأَلْ عَنْهُمْ » [٢].

---

(١) الإباحة: وتكون الإباحة حيث يتوهم المخاطب أن الفعل محظور عليه، فيكون الأمر إذنا له بالفعل. الإيضاح في علوم البلاغة: ٨٣/٣ – محمد بن عبد الرحمن بن عمر، أبو المعالي، جلال الدين القزويني الشافعي، المعروف بخطيب دمشق (المتوفى: ٧٣٩هـ) – المحقق: محمد عبد المنعم خفاجي – الناشر: دار الجيل – بيروت – الطبعة: الثالثة، علم المعاني: ٧٣ – عبد العزيز عتيق (المتوفى: ١٣٩٦ هـ) – الناشر: دار النهضة العربية للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت – لبنان – الطبعة: الأولى، ١٤٣٠ هـ – ٢٠٠٩ م.

(٢) المستدرك على الصحيحين: ١ / ٢٠٦ – أبو عبد الله الحاكم محمد بن عبد الله بن محمد بن حمدويه بن نُعيم بن الحكم الضبي الطهماني النيسابوري المعروف بابن البيع (المتوفى: ٤٠٥هـ) – تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا – الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت – الطبعة: الأولى، ١٤١١ – ١٩٩٠، الأدب المفرد بالتعليقات: ٣٠٥– محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري، أبو عبد الله (المتوفى: ٢٥٦هـ) – حققه وقابله على أصوله: سمير بن أمين الزهيري – الناشر: مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض – الطبعة: الأولى، ١٤١٩ هـ – ١٩٩٨ م، مسند الإمام أحمد بن حنبل: ٣٩ / ٣٦٨ – أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني (المتوفى: ٢٤١هـ) – المحقق: شعيب الأرنؤوط – عادل مرشد، وآخرون – إشراف: د عبد الله بن عبد المحسن التركي– الناشر: مؤسسة الرسالة – الطبعة: الأولى، ١٤٢١ هـ – ٢٠٠١ م.

في هذا الحديث الشريف يحذر النبي صلى الله عليه وسلم من أمور وخيمة قد تحدث، كذلك يحذرنا من مثل مصير هؤلاء الثلاثة المذكورين في الحديث والذي يكون سببه سلوك طريق هؤلاء النفر الذين حذر النبي صلى الله عليه وسلم من اتباع طريقهم وانتهاج منهجهم

وقد جاء البيان النبوي بالنكرة في قوله " ثلاثة " وذلك تهويلاً من أمرهم ولبيان أن أمرهم خطير جدًا فلا يستهان به.

وفى تقديم المسند إليه في قوله " ثلاثة " على المسند تشويق إلى ذكر الخبر، وذلك أنه صلى الله عليه وسلم كان حريصاً على إصغاء السامعين لخطورة الأمر الذي يريد أن يحذر منه.

والنهي في قوله صلى الله عليه وسلم " لا تسأل عنهم " ليس على حقيقته بل هو للتفخيم والتهويل على حد قوله تعالى: ﴿وَلَا تُسْـَٔلُ عَنْ أَصْحَٰبِ ٱلْجَحِيمِ﴾[1]، أي أن أمرهم مقضي ومحتوم فلا ينبغي أن يسأل عنهم؛ لأن مصيرهم فهو العذاب الذي لا يوصف و لا يمكن أن يتصوره عقل.

وقوله: "رجل فارق الجماعة " بعد قوله " ثلاثة " للبيان بعد الإبهام، فهو صلى الله عليه وسلم أخذ يوضح أمر هؤلاء الثلاثة ومن هم بعد أن أتى به مبهما غامضا.

ويكمن جمال البيان بعد الإبهام في أنه يري " المعنى في صورتين مختلفتين، أو ليتمكن في النفس فضل تمكن؛ فإن المعنى إذا أُلقي على سبيل الإجمال والإبهام، تشوقت نفس السامع إلى معرفته على سبيل التفصيل

(1) سورة البقرة آية: ١١٩.

والإيضاح، فتتوجه إلى ما يَرِد بعد ذلك، فإذا ألقي كذلك تمكن فيها فضل تمكن، وكان شعورها به أتم، أو لتكمل اللذة بالعلم به؛ فإن الشيء إذا حصل كمال العلم به دفعة لم يتقدم حصول اللذة به ألم"[1]

فأولهم " رجل " وقد جاء بالنكرة للدلالة على حقارة أمر هذا الرجل وأنه بعد تركه للجماعة لم يعد له قدر ولا قيمة ولا أدنى ثقل، وفى ذلك تنبيه منه صلى الله عليه وسلم على أهمية التمسك بما عليه جماعة المسلمين وإمامهم وعدم مخالفتهم، ففي ذلك الهلاك في الدنيا والآخرة.

وخص الرجل بالذكر دون المرأة وذلك لرجاحة عقله، ويمكن أن يكون من باب التغليب[2] فالحكم يشمل الرجل والمرأة. "ثم إن هذا التغليب كذلك كان في صالح المرأة وليس في صالح الرجل؛ لأنه في سياق الذم، فذكرَ الرجل صراحة، وسترَ المرأة... على سبيل التغليب...إذ لا فرق في أصل التكليف بين أهلية الرجل والمرأة في شتى أنواع التصرفات[3].

وذكر "وعصى إمامه" بعد قوله "فارق الجماعة" تنبيهاً على أهمية طاعة الإمام وعدم عصيانه في شيء ما لم يكن في معصية الله.

---

(1) بغية الإيضاح: ٢٤٦/٢ عبد المتعال الصعيدي (المتوفى: ١٣٩١هـ) الناشر: مكتبة الآداب –الطبعة: السابعة عشر: ١٤٢٦هـ–٢٠٠٥م.

(٢) التغليب: ويسمى ترجيح أحد المعلومين على الآخر. عروس الأفراح: ٣١٨/٢ أحمد بن علي بن عبد الكافي، أبو حامد، بهاء الدين السبكي (المتوفى: ٧٧٣ هـ) – المحقق: الدكتور عبد الحميد هنداوي – الناشر: المكتبة العصرية للطباعة والنشر، بيروت – لبنان – الطبعة: الأولى، ١٤٢٣ هـ – ٢٠٠٣ م.أو هو إعطاء أحد المتصاحبين حكم الآخر. علم المعاني دراسة بلاغية ونقدية: ٢٢١ د. بسيوني عبد الفتاح فيود مؤسسة المختار – الطبعة الثانية.

(٣) تغليب المذكر على المؤنث في الخطاب القرآني.بحث منشور على موقع الألوكة.

وقوله " فمات عاصياً " يعلن صلى الله عليه وسلم أنه لم يتب عن هذا الذنب وأنه ظل على حاله من مفارقة الجماعة ولم يقلع عن ذلك فهو بذلك قد مات عاصيا، وهنا ايجاز بالحذف إذ التقدير فمات وهو مفارق للجماعة، فجعل مفارقة الجماعة هي العصيان بعينه، وفي هذا تهويل من شأن هذا الأمر.

والثاني (أمة أو عبد أبق من سيده) وتقديم الأمة على العبد؛ لأن المرأة أقدم على مثل هذه الأمور من الرجل لنقصان عقلها، فهذا الأمر متوقع منها أكثر من الرجل.

والتنكير في "أمة أو عبد" التهوين من شأن هؤلاء الذين اتصفوا بهذا الفعل فهؤلاء أصبحوا لا قيمة ولا شأن لهم.

وفى قوله " فمات " إيجاز بالحذف والتقدير أي وهو آبق من سيده، وذلك لدلالة السياق عليه والإيجاز من أهم ملامح بلاغته صلى الله عليه وسلم.

وقوله "وامرأة" عبر فيه بالمرأة دون الزوجة؛ لأن "كلمة زوج تأتي حيث تكون الزوجية هي مناط الموقف: حكمة وآية، أو تشريعا وحُكما [1]، وتلك المرأة في هذه الحالة قد أتت بفعل يعكر صفو الحياة الزوجية لأنها بهذا الفعل الذي هو خروجها دون حاجة إليه وتبرجها، لم تصن نفسها ولا زوجها، وهي قبل ذلك لم تحترم ولم يلزم بأمر الله ورسوله.

وفى هذا دلاله على دقة اختياره صلى الله عليه وسلم اللفظ الذي يتناسب مع السياق الذي يقال فيه، فهي أي أن المرأة التي يحدثنا عنها النبي صلى الله عليه وسلم هي بالفعل زوج، لكنها حين خالفت أمر زوجها وقبله أمر الله ورسوله، لا تستحق أن يطلق عليها لفظ زوج.

---

(١) الإعجاز البياني ومسائل ابن الأزرق: ٢٣٠ – عائشة محمد علي عبد الرحمن المعروفة ببنت الشاطئ – دار المعارف – الطبعة: الثالثة.

وفي قوله:" وقد كفاها مؤونة الدنيا"[1] جاء التعبير بـــ (قد) ليفيد تحقق هذا الأمر وذلك مستفاد من دخول قد على الفعل الماضي (كفاها).

والتعبير بـــ "كفاها" دل على أن هذا الزوج قد وفر لهذه الزوجة كل مـــا يكفيها أثناء فترة غيابه، فلا حاجة لها للخروج أثناء هذه الفترة لكنها مع ذلك خرجت وتبرجت.

وفى قوله "فتبرجت" فيه إيجاز بالحذف والتقدير "خرجت" مع عدم وجود الداعي للخروج، وهي لم تكتفي بمجرد الخروج ولكن إضافة إليـــه تبرجـــت وأبدت زينتها لغير محارمها.

وقد ختم صلى الله عليه وسلم كلامه بقوله " فلا تسأل عنهم " وهذا تأكيـــد لما بدأ به كلامه من التهويل من سوء مصير هؤلاء المذكورين في الحـــديث. وختم الكلام بما بدأ به أوله يسمى رد العجز على الصدر.

والتكرار "إنما يحتاج إليه ويحسن استعماله في الأمور المهمة التي تعظـــم العناية بها"[2]

---

(١) المؤونة: مَؤُونة مِنَ الأَيْن، وَهُوَ التَّعَبُ والشِّدَّة. لسان العرب ١٣ / ٣٩٦ – محمد بـــن مكرم بن على، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظـــور الأنصـــاري الرويفعـــى الإفريقـــى (المتوفى: ٧١١هـــ) – دار صادر – بيروت – الطبعة: الثالثة – ١٤١٤ هـــ.
وقيل القوت. المعجم الوسيط:٨٥٢/٢ مجمع اللغة العربية بالقاهرة (إبراهيم مصـــطفى/أحمد الزيات/حامد عبد القادر/محمد النجار) – دار الدعوة.

(٢) بيان إعجاز القرآن – مطبوع ضمن: ثلاث رسائل في إعجاز القرآن [سلسلة: ذخـــائر العرب (١٦)
أبو سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم بن الخطاب البستي المعروف بالخطابي (المتـــوفى: ٣٨٨هـــ)
المحقق: محمد خلف الله، د. محمد زغلول سلام – الناشر: دار المعارف بمصر – الطبعة: الثالثة، ١٩٧٦م.

عَنْ ثَوْبَانَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَيُّمَا امْرَأَةٍ سَأَلَتْ زَوْجَهَا الطَّلَاقَ فِي غَيْرِ مَا بَأْسٍ، فَحَرَامٌ عَلَيْهَا رَائِحَةُ الْجَنَّةِ»(١).

في هذا الحديث الشريف غلظ النبي صلى الله عليه وسلم العقوبة على المرأة التي تسأل زوجها الطلاق من غير سبب قوي يدفع إليه، فقد جعل عقوبة ذلك أن رائحة الجنة محرمة عليها

والتنكير في كلمة (امرأة) يفيد الإفراد أي فرد من جنس النساء، أي أنه صلى الله عليه وسلم أراد أي فرد من أفراد المرأة كما في قوله تعالى " وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى".

وهو الوحي والتحقير من شأن هذه المرأة التي بهذا الوصف.

والبيان النبوي استخدم كلمة " امرأة " ولم يقل زوج لأن المرأة التي على هذه الشاكلة قد أقدمت على تفكيك عرى الحياة الزوجية، فهي في هذه الحالة لا تستحق أن يطلق عليها زوج.

وتنكير كلمة "بأس"(٢) يفيد التعظيم، أي "من غير شدة تلجئها إلى سؤال المفارقة"(٣) ويعلم من هذا أنه ينبغي على المرأة أن تصبر على ما يعتري

---

(١) سنن ابن ماجه: ٦٦٢/١ أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني، وماجة اسم أبيه يزيد (المتوفى: ٢٧٣هـ)

– تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي – الناشر: دار إحياء الكتب العربية – فيصل عيسى البابي الحلبي.

(٢) يُقَالُ: بَئِسَ الشيءُ يَبْأَسُ بُؤْساً وبَأْساً إِذا اشْتَدَّ – لسان العرب: ٢٣/٦ – محمد بن مكرم بن على، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعى الإفريقى (المتوفى: ٧١١هـ) – دار صادر – بيروت – الطبعة: الثالثة – ١٤١٤ هـ.

(٣) تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي: ٣٠٧/٤ – أبو العلا محمد عبد الرحمن بن عبد الرحيم المباركفورى (المتوفى: ١٣٥٣هـ) – الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت.

الحياة الزوجية من منغصات مهما كبرت أو تعاظمت فعليها التحلي بالصبر، وهذا مستفاد من التنكير، فينبغي ألا تهلع لأتفه الأمور وتطلب الطلاق؛ لأنه كما هو معلوم هو أبغض الحلال إلى الله.

والتنكير في قوله "فحرام" للتفخيم والتهويل من شأن هذا التحريم، كما أن التعبير بالمصدر أفاد المبالغة في التحريم أيضاً، فكأن هذا التحريم عقاب لا رجعة فيه ولا هوادة.

والعطف بالفاء في قوله " فحرام " تفيد المبادرة بالعقاب وهذا ما تفيده الفاء من التعقيب، أي المرأة إذا كانت سبباً في تفكك الأسرة من غير داع شديد يدفعها إلى ذلك فإنها ستوفى عقابها دون إمهال أو تراخ، وهذا يدل على عظم الجرم الذي اقترفته هذه المرأة.

وانظر إلى جمال التعبير في قوله صلى الله عليه وسلم "حرام عليها رائحة الجنة" ولم يقل (حرام عليها الجنة)، ومعلوم أن رائحة الجنة تدرك على بعد خمسمائة سنة.

فبين صلى الله عليه وسلم ببذلك أن هذه المرأة محرومة من هذا الفضل، فإذا كانت مجرد الرائحة محرمة عليها فما بالك بالجنة؟ فتكون أكثر في المنع والتحريم عليها.

وفى هذا التعبير مجاز مرسل علاقته اللازمية[1].

---

(١) اللازمية: كون الشيء يجب وجوده عن وجود شيء آخر. جواهر البلاغة: ٢٥٣- أحمد بن ابراهيم مصطفى الهاشمي – المكتبة العصرية ببيروت – علوم البلاغة ٢١٢ – أحمد مصطفى المراغي – أبناء شريف الأنصاري – صيدا – بيروت – ١٤٣٨ هـ – ٢٠١٧م.

ويكمن جمال التعبير بالمجاز المرسل في المبالغة في التحريم إذ بيَّن بهذا التعبير أن هذه المرأة تعاقب بأشد العقوبة وهو الحرمان من الجنة، ليس هـذا فحسب بل من مجرد شم رائحتها إمعاناً في التحريم، والقرينة هنا أن المحـرم ليس الرائحة بل المحرم هو الجنة نفسها.

عَنْ عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ جَدِّهِ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْـهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «لَا يَجُوزُ لِامْرَأَةٍ أَمْرٌ فِي مَالِهَا، إِذَا مَلَكَ زَوْجُهَا عِصْمَتَهَا» (١).

في هذا الحديث الشريف يرشدنا الحبيب صلى الله عليه وسلم إلى ما ينبغي أن تكون عليه المرأة في تصرفها في مالها أو مال زوجها، وهي ألا تنفق أي تتصدق أو تهب شيئاً إلا بعلم الزوج.

والنهي في قوله "لا يجوز" يمكن أن يراد به صريح النهي لأنه صادر منه صلى الله عليه وسلم لنساء أمته؛ لكنه يمكن أن يحمل على النصح والإرشـاد لأنه صلى الله عليه وسلم ينصح بأمر تستقيم معه الحياة الزوجية وتخلو من أن شيء يكدر صفوها من مثل هذه الأمور التي تحدث الشقاق بين الزوجين.

والتنكير في كلمة " لامرأة " أفاد التعميم والإفراد، فالمقصود أي امرأة من جنس النساء علا شأنها أو نزل فلابد عليها أن تستأذن زوجها قبل أن تتصدق وذلك من طيب العشرة.

ولأن هذا الأمر لا يستقيم مع كل الرجال.

وتنكير كلمة "أمر" للتقليل أو للتحقير أي صغر هذا الأمر أو كبر فلابـد للمرأة أن تستأذن زوجها فيه.

---

(١) المستدرك على الصحيحين: ٢/٥٤.

وقوله صلى الله عليه وسلم "في مالها" أي المال الخاص بها، وبهذا يومئ صلى الله عليه وسلم إلى شيء آخر، وهو أنه لا يجوز لها التصرف في مال زوجها بغير إذنه من باب أولى.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «صِنْفَانِ مِنْ أَهْلِ النَّارِ لَمْ أَرَهُمَا، قَوْمٌ مَعَهُمْ سِيَاطٌ كَأَذْنَابِ الْبَقَرِ يَضْرِبُونَ بِهَا النَّاسَ، وَنِسَاءٌ كَاسِيَاتٌ عَارِيَاتٌ مُمِيلَاتٌ مَائِلَاتٌ، رُءُوسُهُنَّ كَأَسْنِمَةِ الْبُخْتِ الْمَائِلَةِ، لَا يَدْخُلْنَ الْجَنَّةَ، وَلَا يَجِدْنَ رِيحَهَا، وَإِنَّ رِيحَهَا لَيُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ كَذَا وَكَذَا»(١)

في هذا الحديث الشريف يخبرنا الحبيب صلى الله عليه وسلم بمشاهد رآها في رحلة الإسراء والمعراج وإخباره صلى الله عليه وسلم بتلك المشاهد تحذير لنا حتى لا نقع في مثل الأمور التي رآها وشاهدها، ومن هذه المشاهد صنفان من الناس لم يكونا موجودين على عهد النبي صلى الله عليه وسلم وهما الحكام الظلمة والنساء الكاسيات العاريات اللاتي لا يلتزمن بالحجاب الشرعي.

وتنكير "صنفان" والبدء بها فيه نوع من التشويق إلى ما سيأتي وفيه إعمال للفكر، والتشويق من الفنون التي يستخدمها النبي صلى الله عليه وسلم خاصة في الأمور المهمة التي تحتاج إلى استثارة الذهن والفكر، والذهن إذا استثير ثم ألقي إليه الخبر بعد تشوق وتشوف تلقفه بعناية واهتمام، يقول عبد القاهر "

(١) صحيح مسلم: ٣ / ١٦٨٠ – مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري (المتوفى: ٢٦١هـ)
المحقق: محمد فؤاد عبد الباقي / الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت.

ليس إعلامُك الشيءَ بغتةً غفلًا، مثْلَ إعلامِك له بعْدَ التنبيهِ عليه والتقدمةِ لـــه، لأنَّ ذلك يَجْري مَجْرى تكريرِ الإعلام في التأكيد والإحكام" (١).

وذكر كلمة "قوم" وما بعدها، هي الصنف الأول فيه بيان بعد الإبهام، وفي هذا تأكيد للكلام لأنه قد عرض في صـــورتين: صـــورة مبهمـــة وصـــورة موضحة.

وتنكير كلمة "قوم" وتنوينها لتحقير هؤلاء القوم وذلك أنهم مع ما هم عليه من المكانة في الدنيا – فهم حكام ذو سطوة وسلطان – إلا أنهم في الآخرة لا قيمة ولا وزن لهم جراء ما اقترفوه في حق العباد في الدنيا.

وتنكير كلمة "سياط" لكونها مجهولة بالنسبة له صلى الله عليه وسلم وكذلك للصحابة، فهي بالصورة التي هي عليها أمر غير معهود لهم لذلك أتى النبـــي صلى عليه وسلم بالتشبيه؛ ليوضح صورة وحقيقة هذه السياط، فقال كأذنـــاب البقر، فقرب النبي صلى الله عليه وسلم بالتشبيه صورة هذه السياط للصحابة،

وهذه الصورة التشبيهية منتزعة من البيئة وهذا من بلاغته صلى الله عليه وسلم في إيصال المعني، فقد أتى صلى الله عليه وسلم بصورة قريبة من أذهان الصحابة، وقناعة الإنسان بما يألف أكبر من قناعته بغيره.

وتنكير كلمة "نساء" للتحقير، فهؤلاء النسوة اللاتي بهذه الأوصاف لا وزن ولا ثقل لهن في الآخرة كما أخبر النبي صلى الله عليه وسلم، فهؤلاء النســـوة كن يعتقدن أنهن بما يقترفنه من الأوصاف التي أخبر بها النبي صلى الله عليه وسلم يزددن قيمة ومكانة فجاء الجزاء أخروي مبيناً لهن أنه لا قيمة لهـــن ولا وزن.

---

(١) دلائل الإعجاز: ١٢٣.

وأول هذه الأوصاف التي أخبرنا الصادق الذي لا ينطق عن الهوى "كاسيات" والتنكير فيها لبيان النوعية، فالتنكير قد بين ووضح أن ما يرتدينه هؤلاء النسوة نوع خاص من الكساء لا يستر من يرتديه، فصاحب هذا اللباس كاس وعار في الوقت نفسه.

وكذلك تنكير "عاريات" لبيان النوعية أيضا، فقد بين التنكير أن ذلك العري من نوع خاص تكون المرأة فيه عارية وهي كاسية، ويمكن أن يكون المقصود بعاريات أي: عاريات من الحسنات لكونها لم تستر نفسها في الدنيا بالحجاب الشرعي، ويكون التنكير لبيان النوعية أيضًا لأنه عري من نوع خاص أي من الحسنات.

والتنكير في "مميلات" لبيان النوعية أيضًا فهو ليس ميلاً حقيقيًا وإنما هو ميل عما شرعه الله.

وفي قوله "مميلات" استعارة، حيث شبه حمل النساء على الانحراف عن طريق الاستقامة بالإمالة بجامع الاعوجاج والضلال في كل ثم حذف المشَبه وادُّعي دخول المشَبه في جنس المشَبه به ثم اشتق من الإمالة بمعني الإضلال مميلات بمعني حاملات لغيرهن على اتباعهن على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية.

والتنكير في "مائلات" لبيان النوعية أيضا فالميل هنا من نوع خاص غير ما تعهده الأعين فهو الميل عن طريق الحق مع وضوحه واستقامته.

وفي "مائلات" كذلك استعارة تبعية تصريحية على النحو الذي بيناه في مميلات.

ومجيء الصفات (كاسيات-عاريات-مميلات-مائلات) دون عطف فيه دلالة على اتحاد هذه الصفات وتناسبها، فجميعها صفات يمكن أن تجتمع في واحدة من هؤلاء العاصيات اللائي يجاهرن الله تعالى بالمعصية.

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «كَانَتِ امْرَأَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، قَصِيرَةٌ تَمْشِي مَعَ امْرَأَتَيْنِ طَوِيلَتَيْنِ، فَاتَّخَذَتْ رِجْلَيْنِ مِنْ خَشَبٍ، وَخَاتَمًا مِنْ ذَهَبٍ مُغْلَقٌ مُطْبَقٌ، ثُمَّ حَشَتْهُ مِسْكًا، وَهُوَ أَطْيَبُ الطِّيبِ، فَمَرَّتْ بَيْنَ الْمَرْأَتَيْنِ، فَلَمْ يَعْرِفُوهَا، فَقَالَتْ بِيَدِهَا هَكَذَا»[1] وَنَفَضَ شُعْبَةُ يَدَهُ.

في هذا الحديث ينهانا النبي صلى الله عليه وسلم عن الغش والتدليس؛ حتى فيما تتخذه المرأة زينة، والمذكور في هذا الحديث هو ما تتخذه المرأة من أمور تزيد بها طولها، لهذا اتخذت هذه المرأة القصيرة رجلين من خشب فلم تعرف حتى ممن كانت تمشي معهن.

وتنكير كلمة "امرأة" جاء فقط للدلالة على أنها فرد من أفراد النساء من بني اسرائيل.

وتنكير "قصيرة" لعدم تعيينها لأن هذه المرأة توهمت أن هذا الوصف ينتقص من قدرها ويعيبها ويجعلها أقل قيمة من أقرانها.

والإتيان بهذا الوصف "قصيرة" للتخصيص[2] أي تخصيص المرأة التي اتصفت بهذا الوصف ولأنه هو سبب سرد هذه القة، فله دور أساسي في

---

(١) صحيح مسلم: ١٧٦٥/٤.

(٢) ومعني تخصيص الوصف للموصوف أي تحديده ورفع احتمال غيره في المعارف وتقليل الاشتراك في النكرات. بغية الإيضاح: ١٨٣/١، علم المعاني دراسة بلاغية ونقدية لمسائل المعاني: ١١٣ – د.بسيوني عبد الفتاح فيود.

الحديث وليس من باب العيب، فحاشاه صلى الله عليه وسلم أن يقوله من باب العيب.

كذلك تنكير كلمة "امرأتين" لعدم تعيين تلك المرأتين، فهو صلى الله عليه وسلم لم يرد أن يعين هاتين المرأتين.

والإتيان بالوصف "طويلتين" للتخصيص أي أنهما ممن اختصتا بهذا الوصف.

والإتيان بالفاء هنا في قوله "فاتخذت" فيه دلالة على أن هذه المرأة لم تمكث وقتا طويلا بعد أن رأت نفسها ضئيلة بين المرأتين وكأنها قد أسرعت وفعلت ما فعلت لما وجدته في نفسها في هذا الموقف.

وتنكير "خشب" للنوعية، فدل التنكير على أن هذا الخشب قد شكل على نحو خاص بحيث لا يدرك ولا يعرف أنه خشب.

وربما كان التنكير في "خشب" للتحقير، فبين أنه كان شيئًا مهينًا وقد حولته هذه المرأة فصار شيئا عظيما عندها، فقد ساعدها على التغلب على ما تشعر به من نقص بين أقرانها.

وتنكير "خاتمًا" للتعظيم فمنزلة الخاتم في الزينة عالية فهو مما يزيد في جمال المرأة خاصة إذا كان من الذهب.

وتنكير "ذهب" للتعظيم والتفخيم أيضا، فقيمة الذهب عند النساء غالية وقدره عندهن معلوم، فدل التعظيم على أن قيمة الذهب عند النساء أكبر من أن توصف.

وتنكير "مغلق" و "مطبق" للدلالة على أن هذا الخاتم مصنوع على نحو معين، فهو مغلق ومطبق بصورة معينة ومخصوصة.

والإتيان بالوصف هنا لتوضيح صورة هذا الخاتم فيجعل السامع كأنه يراه بعينيه ويلمسه بيديه.

وتنكير "مسكا" للتفخيم والتعظيم، فمنزلة المسك بين العطور عالية، فجاء التنكير؛ ليبين هذه القيمة وتلك المنزلة.

وزاد هذا الأمر تأكيداً قوله صلى الله عليه وسلم "وهو أطيب الطيب" فأكد المكانة التي يتميز بها المسك من بين سائر العطور.

عَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " لَا تُؤْذِي امْرَأَةٌ زَوْجَهَا إِلَّا قَالَتْ زَوْجَتُهُ مِنَ الْحُورِ الْعِينِ: لَا تُؤْذِيهِ، قَاتَلَكِ اللَّهُ، فَإِنَّمَا هُوَ عِنْدَكِ دَخِيلٌ، أَوْشَكَ أَنْ يُفَارِقَكِ إِلَيْنَا "(١).

يحذر النبي صلى الله عليه وسلم نساء الدنيا من إيذاء أزواجهن ويبين لهن أن هناك من الحور العين من تدافع عن هذا الزوج بالدعاء على هذه المرأة التي تقوم بإيذاء زوجها وتنبهها على أن فترة مكث هذا الزوج في الدنيا قصيرة وسيكون مرجعه للحور العين إن شاء الله.

وقوله صلى الله عليه وسلم "لاتؤذي" أطلق النبي صلى الله عليه وسلم الإيذاء ولم يقيده بنوع معين ليشمل كل أنواع الإيذاء وإلا فالإيذاء متنوع وكثير، فهناك إيذاء حسي وإيذاء معنوي وكل هذا يندرج تحت قوله صلى الله عليه وسلم "لا تؤذي".

تأمل إلى دقة البيان النبوي في التعبير حين عبر عن زوجة الدنيا بامرأة وعن زوجة الآخرة (التي هي من الحور العين) بالزوجة، فجاء تعبيره صلى الله عليه وسلم في غاية الدقة لأن هناك فرقًا بين المرأة والزوجة، فزوجة الدنيا

(١) سنن ابن ماجه: ٦٤٩/١.

التي عبر عنها بالمرأة قد عاشت مع زوجها وصاحبته مدة من الزمن ومع ذلك لم تكرمه، ليس هذا فحسب بل قامت بإيذائه فاستحقت أن يقال لها امرأة أما زوجة الآخرة فلم تعش معه بعد ومع ذلك تدافع عنه وتشفق عليه من إيذاء زوجته في الدنيا.

فكانت الأولي التي هي زوجة الدنيا مجرد امرأة لم تحقق معني الزوجية الحقيقية، أما الأخرى التي هي زوجة الآخرة استحقت هذا اللفظ عن جدارة لوجود الاستقرار والوئام بينها وبين هذا الزوج حتي قبل أن تراه وتصاحبه.

وتنكير كلمة "امرأة" للتحقير والتقليل من شأن هذه المرأة التي لم تحفظ أي حق من حقوق زوجها بل على العكس أساءت إليه وآذته وقد استخدم البيان النبوي أسلوب القصر في قوله "لا تؤذي...إلا قالت" لتأكيد هذا المعني وإحكامه.

وطريق القصر هنا في الحديث هو النفي والاستثناء قد استخدم فيما هو موضوع له لأن هذا الأمر الذي أخبر به النبي صلى الله عليه وسلم من وجود زوجة من الحور العين تتأذي بإيذاء المرأة لزوجها في الدنيا أمر مجهول لكثير من النساء.

والنهي في قول الحور العين " لا تؤذيه" جاء على سبيل النصح والإرشاد لمن تسمع هذا الحديث.

وجملة "قاتلك الله" خبرية لفظا إنشائية معنا أريد بها الدعاء على هذه الزوجة التي تقوم بإيذاء زوجها.

والإتيان بـــ "إنما" في قوله "فإنما هو عندك دخيل"[1] لقصر وجـــود هـــذا الزوج علي كونه ضيف عند زوجته في الدنيا.

وطريق القصر "إنما" يستخدم في أمر يعلمه المخاطب ويقر بصحته، فكأن هذه الحورية تقول لهذه المرأة أن كون هذا الزوج ضيف أمر معلوم ومتقـــرر فينبغي أن تكون المعاملة على أنه ضيف وتقومي بإكرامه.

وتقديم الظرف "عندك" على قوله "دخيل" يفيد اختصاص هذه المرأة بهـــذا الضيف، فإكرامه واجب عليها خاصة.

وتنكير "دخيل" جاء ليبين أنه ضيف من نوع خاص لكنه يجب له ما يجب للضيف من الإكرام.

(١) الدَّخِيلُ: الضَّيفُ والنَّزيلُ. النهاية في غريب الحديث والأثر: ١٠٨/٢ – مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد بن محمد بن محمد ابن عبد الكريم الشيباني الجزري ابن الأثير (المتوفى: ٦٠٦هـــ) – الناشر: المكتبة العلمية – بيروت، ١٣٩٩هـــ – ١٩٧٩م – تحقيق: طاهر أحمد الزاوي – محمود محمد الطناحي.

المبحث الثاني
تنكير المسند

عَنِ ابْنِ عُمَرَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا تَمْنَعُوا نِسَاءَكُمُ الْمَسَاجِدَ، وَبُيُوتُهُنَّ خَيْرٌ لَهُنَّ»(١)

في هذا الحديث ينهي النبي صلى الله عليه وسلم الرجال عن أن يمنعوا النساء من الصلاة في المساجد لكنه يدل على أن النبي صلى الله عليه وسلم أرشد النساء إلى ما هو أصلح لهن بقوله " وبيوتهن خير لهن " تتجلى في هذا الحديث بلاغته صلى الله عليه وسلم في الدلالة على الخير، حيث بين ما هو أفضل للمرأة في أمر الصلاة، حيث بدأ أولاً بإعطائها حقها في الذهاب إلى المسجد، فبين صلى الله عليه وسلم أنه لا يحق لزوجها أو من يملك أمرها أن يمنعها من الذهاب للمسجد.

ولا يخفى علينا ما أفادته الإضافة في قوله " نسائكم "، أي وان كنتم تملكون أمرهم وهن تحت سطوتكم فمهما كان ذلك فلا يحق لكم أن تمنعوهن من الذهاب للمساجد.

ثم قال صلى الله عليه وسلم "وبيوتهن خير لهن" على طريق الإغراء(٢) فتقديم قوله "لا تمنعوا" فيه مداعاة لقبول قوله "بيوتهن خير لهن".

وأضاف البيوت لهن لمزيد الاختصاص.

---

(١) سنن أبي داود: ١٥٥/١ – أبو داود سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير بن شداد بن عمرو الأزدي السِّجِسْتاني (المتوفى: ٢٧٥هـ) – المحقق: محمد محيي الدين عبد الحميد – الناشر: المكتبة العصرية، صيدا– بيروت.

(٢) الإغراء: إلزام المخاطب العكوف على ما يحمد عليه . عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح: ٤٧٤/١.

وتقديم المسند" بيوتهن "على المسند إليه "خير "يؤكد هذا الاختصاص.

كما أفاد هذا التقديم قد أفاد القصر، أي قصر الخيرية على البيوت، وهذا من بلاغته صلى الله عليه وسلم لأن الخروج للمسجد يجر وراءه أمورا قد لا يمكن سدها أو التغلب عليها.

ويأتي تنكير المسند اليه في قوله "خير" ليبين لنا أن الخير في ملازمة النساء البيت، ففي ملازمة البيوت من الخير ما لم يعلم كنهه إلا الله، فالتنكير هنا أفاد التعظيم والتفخيم، كما دل التنكير على أن هذا الخير قد يخفى على الكثير وقد لا يدرك من أول وهلة فلابد من النظر إليه من كل الأبعاد حتى يدرك كنهه وحقيقته.

وقال صلى الله عليه وسلم "وبيوتهن خير لهن" ولم يقل وفي بيوتهن الخير لهن، ليدل صلى الله عليه وسلم أن البيوت بكل ما تحويه من أمور سواء كانت دينية أو دنيوية هي أفضل وخير لها من الذهاب للمسجد، لذلك كان من بلاغته صلى الله عليه وسلم استخدام الكلمة "خير" نكرة على نحو ما جاء في الحديث، وجاء التنوين ليزيد هذا المعنى تأكيدا.

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «إِنَّ الْمَرْأَةَ عَوْرَةٌ، فَإِذَا خَرَجَتِ اسْتَشْرَفَهَا الشَّيْطَانُ، وَأَقْرَبُ مَا تَكُونُ مِنْ وَجْهِ رَبِّهَا وَهِيَ فِي قَعْرِ بَيْتِهَا»(١)

(١) صحيح ابن خزيمة: ٩٣/٣ - أبو بكر محمد بن إسحاق بن خزيمة بن المغيرة بن صالح بن بكر السلمي النيسابوري (المتوفى: ٣١١هـ) - المحقق: د. محمد مصطفى الأعظمي - الناشر: المكتب الإسلامي - بيروت - بدون.

حرص الدين الاسلامي على المرأة وعلى الحفاظ عليها، فبين لنا الرسول الكريم في هذا الحديث أن المرأة عورة وأنها مما يجب ستره، وأنها حين تخرج من بيتها تكون بمرصد من الشيطان، فإذا أرادت أن يبتعد عنها الشيطان فلتلزم بيتها وذلك في كل حال حتى في حال العبادة.

جاء الخبر مؤكدًا في قوله صلى الله عليه وسلم "إن المرأة عورة" وهو صلى الله عليه وسلم الصادق المصدوق الذي لا ينطق عن الهوى، ومع ذلك أتى الخبر مؤكدًا، وذلك لتنزيل خالي الذهن منزلة المتردد أو المنكر، وذلك لما علم من حال المخاطبين وما قد رسخ في عقيدتهم من قبل من أن المرأة ليست بعورة، فخاطبهم النبي صلى الله عليه وسلم على هذا النحو.

واللام في كلمة "المرأة" لاستغراق الجنس، أي أن جنس المرأة كله عورة لا يستثنى من هذا الحكم أحد، فلا تقول إحداهن أنا لست بعورة لأني لست جميلة، فالجمال أمر نسبي.

كما يدل هذا التعبير على أن المرأة بكاملها عورة، وهذا على رأي من يقول بذلك.

وقوله " فإذا خرجت استشرفها الشيطان"[1]، وتعليق الشرط بإذا التي تفيد تحقق الوقوع فيه دلالة على تحقق هذا الأمر وهو استشراف الشيطان للمرأة حين خروجها من بيتها، فهو صلى الله عليه وسلم يرشدنا من طرف خفي على فضيلة لزوم المرأة بيتها، وانه أكرم وافضل لها، وأن الخروج يترتب عليه

(١) استشرف: التَّشَرُّف لِلشَّيْءِ التَّطَلُّعُ والنظرُ إِلَيْهِ وحديثُ النفْسِ وتَوَقُّعُه – لسان العرب:.٩/ ١٧٢.

مفاسد عظيمة، لكنه صلى الله عليه وسلم لم ينه عن الخروج صراحة ولكن ذكر ما يترتب على هذا الخروج وترك الأمر لها؟ حتى تتبين أمر نفسها.

وجاءت كلمة " عورة " نكرة للتهويل والتفخيم من شأن هذه العورة.

ويمكن أن يكون التنكير للنوعية فهي أي أن المرأة عورة، لكنها عورة من نوع خاص فيجب سترها كما يجب ستر العورة الحقيقية التي ألزمنا الشرع بسترها.

وقوله "إن المرأة عورة" تشبيه بليغ(١). والتشبيه قد جسد هذه الصورة أمام أعين الحاضرين وهول من شأنها في نفوس السامعين.

وقد عطفت جملة وأقرب ما تكون " من وجه ربها " على ما قبلها وذلك لما بينهما من التوسط بين الكمالين ولوجود المناسبة بينهما، فالجملة الأولى تتحدث عن الستر خارج البيت والثانية تتحدث عن الستر داخل البيت حيث تكون المرأة بين يدي ربها، فالجملتان هدفهما واحد.

وإذا كان القرب الشديد من الله سبحانه وتعالى مقرون بالستر وذلك في الصلاة فما بالك في غير ذلك؟.

عَنْ سَعِيدٍ المَقْبُرِيِّ، عَنْ أَبِيهِ، أَنَّهُ سَمِعَ أَبَا سَعِيدٍ الخُدْرِيَّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: " إِذَا وُضِعَتِ الجِنَازَةُ [ص:٨٦]، وَاحْتَمَلَهَا الرِّجَالُ عَلَى أَعْنَاقِهِمْ، فَإِنْ كَانَتْ صَالِحَةً، قَالَتْ: قَدِّمُونِي، وَإِنْ كَانَتْ غَيْرَ صَالِحَةٍ، قَالَتْ: يَا وَيْلَهَا أَيْنَ يَذْهَبُونَ بِهَا؟ يَسْمَعُ صَوْتَهَا كُلُّ شَيْءٍ إِلَّا الإِنْسَانَ، وَلَوْ سَمِعَهُ صَعِقَ "(٢).

---

(١) هذا اصطلاح على التشبيه المحذوف الموجه والأداة.

(٢) صحيح البخاري: ٨٥/٢ .

في هذا الحديث الشريف يطلعنا النبي صلى الله عليه وسلم على جانب من الغيب لم نكن نعلمه من قبل، وهو حال الجنازة ذاهبة إلى القبر أيضا وأن هذا القول يسمعه كل ما على الأرض إلا الإنسان ولو سمعه لصعق.

استخدم البيان النبوي أدوات الشرط على نحو يتناسب والسياق الذي أتت فيه فنجده صلى الله عليه وسلم قد استخدم "إذا" في قوله: " إذا وضعت الجنازة " وقد استخدمت إذا فيما وضعت له في اللغة [1] فوضع الجنازة وحملها على الأعناق أمر واقع وحاصل.

وأتت "إن" في قوله: "فإن كانت صالحة" كذلك فيما وضعت له للدلالة على أن هذا الأمر وهو صلاح الجنازة أمر قليل إذا قيس بغيره.

ومجيئ" صالحة "نكرة للدلالة على التفخيم والتعظيم وأنه لا يعلم كنه و لا مقدار هذا الصلاح إلا الله سبحانه، فهو وحده الذي يعلم بواطن الأمور وخفاياها.

فهذه الجنازة لما بينها وبين ربها من أعمال قد لا يعلمها إلا هو سبحانه مستبشرة بعملها ومتشوقة لملاقاة مصيرها الذي بشرت به وقت الاحتضار لذا قالت قدموني تريد الإسراع بها إلى مستقرها الأخير حتى ترتاح من عناء الدنيا وتعبها.

واختياره صلى الله عليه وسلم لهذا اللفظ "صالحة "دون غيره لأن الصلاح " ما يتَمَكَّن بِهِ الْخَيْر اَوْ يتَخَلَّص بِهِ من الشَّرّ... ويجوز الصّلاح التَّغَيُّر الى استقامة الْحَال والصالح الْمُتَغَيّر الى استقامة[2].

---

(١) الأصل في "إن" ألا يكون الشرط فيها مقطوعا بوقوعه والأصل في "إذا" أن يكون الشرط فيها مقطوعا بوقوعه – بغية الإيضاح: ١٦٩/١.

(٢) الفروق اللغوية: ٢٠٩ – أبو هلال الحسن بن عبد الله مهران العسكري (المتوفى: نحو ٣٩٥هـ) حققه وعلق عليه: محمد إبراهيم سليم – دار العلم والثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة – مصر.

واستخدام آخر لـــ "إن " في قوله صلى الله عليه وسلم "وإن كانت غيـــر صالحة" والأصل فيها كما ذكر من قبل أنها تأتي في الشرط غيـــر المقطـــوع بحدوثة، فاستخدام " إن" في هذا السياق فيه إشارة إلى الأولى، والأجدر بنـــا وهو ألا تكون في أمة محمد صلى الله عليه وسلم جنازة غيـــر صـــالحة وإن وجدت فتكون قليلة، ولم لا وهو صلى الله عليه وسلم ما ترك خيرا إلا ودلنـــا عليه وما ترك شرا إلا ونهانا عنه.

عن ثابتِ البُنانِيِّ قالَ: كُنْتُ عندَ أَنَس، وعِنْدَهُ ابْنَةٌ لهُ، قالَ أَنَـــسٌ: جـــاءَتِ امْرَأَةٌ إلى رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم تَعْرِضُ عليهِ نَفْسَها. قالَتْ: يا رسولَ اللهِ! أَلَكَ بي حاجَةٌ؟ فقالَتْ بِنْتُ أَنَس: ما أَقَلَّ حَياءَها؟

وا سَوْأَتاهْ! وا سَوْأَتاهْ! قالَ: هِيَ خَيْرٌ مِنْكِ، رِغِبَتْ في النبيِّ – صـــلى الله عليه وسلم، فعَرَضَتْ عليهِ نَفْسَها(١).

في هذا الحديث الشريف بين حرص الصحابيات على الخيـــر، وبـــين أن منهن من كانت تعرف موضع الخير وتحرص على أن تناله، فهذه الصـــحابية أتت كي تنال شرفاً ليس بعده شرف وهو أن تكون زوجاً للنبي صلى الله عليه وسلم، فقالت أخرى حينما رأت ذلك "ما أقل حياءها واسوأتاه" فعابت عليها هذا الذي فعلته من طلبها للنبي صلى الله عليه وسلم، فقال النبي صـــلى الله عليـــه وسلم رادً عليها هي خير منك.

والتنكير في قوله صلى الله عليه وسلم " خير منك " فقد أفـــات التعظـــيم والتفخيم وأن في هذه من المرأة من الخير ما لا يعلم كنهـــه إلا الله ســـبحانه

(١) مُخْتَصَر صَحِيحُ الإِمَامِ البُخَارِي: ٣٦٣/٣ – أبو عبد الرحمن محمد ناصر الدين، بـــن الحاج نوح بن نجاتي بن آدم، الأشقودري الألباني (المتوفى: ١٤٢٠هـــ) – الناشر: مكتَبـــة المَعارف للنَّشْر والتوزيع، الرياض – الطبعة: الأولى، ١٤٢٢ هـــ – ٢٠٠٢ م.

وتعالى فيها خير عظيم وكثير جداً، وأن خفي على ما تكلمت به إلا أن قدرها عظيم عند الله سبحانه وتعالى وذلك لأنها أرادت أن تحظى بما يرضى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وتلاحظ الفصل بين جملة " هي خير منك " وبين جملة رغبت في النبي وذلك لما بينهما من شبه كمال الاتصال فكأن سائلاً سأل ما سبب هذه الخيرية؟ فكان الجواب رغبت رسول الله صلى الله عليه وسلم.

والفعل "رغب" يتعدى بـ بحروف كثيرة كما في الحديث هنا كان معناه أنه أراد الشيء، وإذا عدى بـ عن كان معناه انه لم يرد [1].

وكان الأصل أن يقول صلى الله عليه وسلم رغبت في لكنه عدل عن الضمير إلي الاسم الظاهر وذلك لإبراز صفة النبوة وبيان أنه صلى الله عليه وسلم حقيق وجدير بما فعلته هذه المرأة من أجل تلك الصفة.

ولعل النبي صلى الله عليه وسلم بتعبيره بالاسم الظاهر أراد أن يرفع الحرج عن هذه المرأة وينبه الأخرى التي عابت عليها أنه ليس أي أحد فهو نبي.

---

(١) القاموس المحيط: ٩٠ – مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب الفيروزآبادى (المتوفى: ٨١٧هـ)

تحقيق: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة – الناشر: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت – لبنان

الطبعة: الثامنة، ١٤٢٦ هـ – ٢٠٠٥ م.

المبحث الثالث
تنكير غير المسند إليه والمسند

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، جَاءَ نِسْوَةٌ إِلَى رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقُلْنَ: يَا رَسُولَ اللهِ، وَاللهِ مَا نَقْدِرُ عَلَيْكَ فِي مَجْلِسِكَ مِنَ الرِّجَالِ، فَوَاعِدْنَا مِنْكَ يَوْمًا نَأْتِيكَ فِيهِ. قَالَ: " مَوْعِدُكُنَّ بَيْتُ فُلَانٍ ". وَأَتَاهُنَّ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ، وَلِذَلِكَ الْمَوْعِدِ، قَالَ: فَكَانَ مِمَّا قَالَ لَهُنَّ، يَعْنِي: " مَا مِنِ امْرَأَةٍ تُقَدِّمُ ثَلَاثًا مِنَ الْوَلَدِ تَحْتَسِبُهُنَّ، إِلَّا دَخَلَتِ الْجَنَّةَ " فَقَالَتِ امْرَأَةٌ مِنْهُنَّ: أَوِ اثْنَانِ؟ قَالَ: "أَوِ اثْنَانِ" (١).

يبين لنا صلى الله عليه وسلم في هذا الحديث أنه يجب الاهتمام بالمرأة مثلها مثل الرجل على حد سواء، لذلك حرص النبي صلى الله عليه وسلم على تلبية مطلب النساء في جعل يوم لهن، يتفقهن فيه على يد النبي صلى الله عليه وسلم وتتعلم فيه النساء أمور دينها.

فكان مما قاله لهن النبي صلى الله عليه وسلم تلك البشرى، وهي أن المرأة التي يتوفى لها ثلاث من الأولاد بشرط الصبر وعدم الجزع، بشرها بالجنة، فبادرت إحدى النساء بالسؤال أو اثنان فقال لها صلى الله عليه وسلم أو اثنان.

ونلحظ التنكير في كلمة " أمرأه " وقد أفاد التعظيم فهذه المرأة التي تقدم ثلاثاً من أولادها تحتسبهن عند الله، لا شك أنها امرأة عظيمة وذو مكانة عظيمة عند ربها، لذلك كافأها المولى عز وجل بالجنة.

وقد آثر البيان النبوي التعبير " بامرأة " دون غيرها مثل " أم " مثلاً فكان صلى الله عليه وسلم يشير إلى أن المرأة في هذه الحالة التي يتحدث عنها النبي

(١) مسند الإمام أحمد بن حنبل: ٣١٣/١٢.

تتغلب على أمومتها التي فطرت عليها، تتناساها وتتغلب عليها ابتغاء وجه الله تعالى وهذا أمر ليس بالهين ولا باليسير، لذلك كان الجزاء عظيماً.

وتقديم المسند إليه "امرأة" على الخبر الفعلي" تقدم" للاختصاص وتقوية الكلام وتأكيد حصوله.

والفعل "تقدم" يشعر بأن هذا الفعل قد حدث منها طواعية فهذا يدل على تمام الرضا عن هذا الفعل وكأنها قد قدمت ولدها بيدها.

والتنكير في "ثلاثاً" لعدم تخصيص أي نوع من الولد، فالمقصود أي ثلاث سواء أكانوا ذكوراً أم إناثاً.

وقوله صلى الله عليه وسلم "تحتسبهن" إيغال(١)، فهو صلى الله عليه وسلم قد جعل تقديم الولد مشروطاً بالاحتساب وكذلك دخول الجنة شرطه الاحتساب، فليست كل من تقدم ثلاثاً من الأولاد تدخل الجنة، فقط من تصبر وتحتسب.

والتعبير بالماضي "دخلت" مكان المضارع "تدخل" فيه دلالة على تحقق الفعل وكأنه قد حدث بالفعل، فكان ضماناً لدخول هذه المرأة الجنة.

واستخدام أسلوب القصر يزيد الكلام قوة وتأكيداً، استخدام طريق القصر "ما، إلا " لأنه أمر يجهله المخاطبون فلم يكن لهم به دراية من قبل.

وكذلك لفظ " اثنان " أتى نكرة ليدل على عدم التقيد بصنف من الأبناء دون غيره، فهم سواء كانوا ذكوراً أم إناثاً.

عَنْ أَبِي الْمَلِيحِ الْهُذَلِيِّ، أَنَّ نِسْوَةً مِنْ أَهَلْ حِمْصَ اسْتَأْذَنَّ عَلَى عَائِشَةَ، فَقَالَتْ: لَعَلَّكُنَّ مِنَ اللَّوَاتِي يَدْخُلْنَ الْحَمَّامَاتِ، سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ

(١) الايغال: هو ختم الكلام شعراً أو نثراً بما يفيد فائدة يتم المعني بدونها. الإيضاح: ٢٠٢/٣.

وَسَلَّمَ يَقُولُ: «أَيُّمَا امْرَأَةٍ وَضَعَتْ ثِيَابَهَا فِي غَيْرِ بَيْتِ زَوْجِهَا، فَقَدْ هَتَكَتْ سِتْرَ مَا بَيْنَهَا وَبَيْنَ اللَّهِ»(١).

في هذا الحديث ينهي النبي صلى الله عليه وسلم عن أمر خطير جدا وهو أنه لا يجوز للمرأة أن تضع ثيابها في غير بيت زوجها، وأنها إذا فعلت ذلك فقد اقترفت إثما عظيما وبهذا الإثم تكون قد هتكت ستر ما بيها وبين الله.

والتنكير في قوله " امرأة " للإفراد من شأن هذه المرأة التي طرحت عنها ثيابها في غير بيت زوجها ولم يعبر كذلك عنها بلفظ الزوجة لأنها في هذه الحالة حين تطرح عنها ثيابها في غير بيت زوجها لا تستحق أن يطلق عليها لفظ "الزوج" فقد ارتكبت أمراً يعصف بالحياة الزوجية بل ويقضي عليها.

وقوله صلى الله عليه وسلم "وضعت ثيابها" كناية(٢) عن الزنا وإلا فوضع الثياب في حد ذاته غير محرم، وهذا من بلاغته صلى الله عليه وسلم، حيث استخدم الكناية في الأمور التي يعف اللسان عن ذكرها.

وجمال الكناية أنها دعوى مقرونة بالدليل وذلك "أنك لما كنيت عن المعنى زدت في ذاته، بل المعنى أنك زدت في إثباته، فجعلته أبلغ وآكد وأشد... وأن إثبات الصفة بإثبات دليلها، وإيجابها بما هو شاهد في وجودها آكد وأبلغ في الدعوى من أن تجيء إليها فتثبتها هكذا ساذجا غفلا"(٣).

والتعبير بـ "قد" يفيد التحقيق أي أن هذا لأمر محقق لا محالة.

---

(١) سنن ابن ماجه: ١٢٣٤/٢.

(٢) الكناية: أن يُريد المتكلمُ إثباتَ معنًى من المَعاني، فلا يذكُرُه باللّفظِ الموضوعِ له في اللُّغة، ولكنْ يَجيءُ إلى معنى هو تاليهِ وردْفُه في الوجود، فيومئ به إليهِ، ويجعلهُ دليلاً عليه. دلائل الإعجاز: ٦٦.

(٣) دلائل الإعجاز: ٧١، ٧٢.

وقد أكد الكلام بالإتيان بالفعل الماضي "هتكت"[1] للدلالة على أن هذا الأمر مقضي.

وفي قوله صلى الله عليه وسلم "فقد هتكت" استعارة حيث شبه التجرؤ على حرمات الله واقترافها، بهتك الستر أي شقه، ففيه استعارة تصريحية تبعية.

والاستعارة قد جسدت الأمر المعنوي الذي هو اقتراف المحرمات في صورة حسية، فجعلته كمن يشق سترًا بينه وبين الله.

وهذا الكلام يحمل في طياته وعيدًا إذ لا يبقى بعد شق الستر إلا العذاب الشديد في الدنيا وفي الآخرة إذا لم تتب من تفعل تلك الكبيرة وتقلع عنها.

وتنكير "ستر" فيه دلالة على التعظيم والتفخيم من شأن هذا الستر وأنه مما يجب أن يحفظ ويصان ولا يجترأ عليه.

عن ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أُرِيتُ النَّارَ فَإِذَا أَكْثَرُ أَهْلِهَا النِّسَاءُ، يَكْفُرْنَ» قِيلَ: أَيَكْفُرْنَ بِاللَّهِ؟ قَالَ: " يَكْفُرْنَ العَشِيرَ، وَيَكْفُرْنَ الإِحْسَانَ، لَوْ أَحْسَنْتَ إِلَى إِحْدَاهُنَّ الدَّهْرَ، ثُمَّ رَأَتْ مِنْكَ شَيْئًا، قَالَتْ: مَا رَأَيْتُ مِنْكَ خَيْرًا قَطُّ " [2].

في هذ الحديث يخبرنا النبي صلى الله عليه وسلم، بأن أكثر أهل النار من النساء، وبين صلى الله عليه وسلم سبب ذلك، وهو أنهن يجحدن نعمة أزواجهن عليهن، وهو أمر يقع فيه كثير من النساء، فإذا استمر إحسان الزوج

---

(١) هتك: أَصلٌ يَدُلُّ عَلَى شَقٍّ فِي شَيْءٍ. وَالْهَتْكُ: شَقُّ السِّتْرِ عَمَّا وَرَاءَهُ. معجم مقاييس اللغة: ٣٢/٦ – أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، أبو الحسين (المتوفى: ٣٩٥هـ) – المحقق: عبد السلام محمد هارون – الناشر: دار الفكر – عام النشر: ١٣٩٩هـ – ١٩٧٩م.

(٢) صحيح البخاري: ١٥/١.

إلى زوجه دهراً كاملاً ثم بدر منه شيء صغير فإنها تنسى وتجحد هذ الإنسان ولا تتذكر إلا الأمر السيء الذي فعله وتقول ما رأيت منه خير قط.

وبناء الفعل للمجهول في قوله "أريت" "فيه تركيز الاهتمام على الحَـدث، بِصَرْفِ النظرِ عن مُحدِثه.."[١] فقد أراد صلى الله عليه وسلم أن يصرف الاهتمام إلى الفعل الذي هو الرؤية وما ترتب عليها من مشاهد، ثم أخذ يحذرنا من الوقوع فيها.

وإذا في قوله " فإذا "هي إذا الفجائية [٢]، فالنبي صلى الله عليه وسلم قد فوجئ بهذا الأمر كأنه لم يتوقع أن يكون أكثر أهل النار من النساء.

وقد أخبر النبي صلى الله عليه وسلم بأن سبب ذلك هو أنهن "يكفرن" أي يجحدن إحسان أزواجهن[٣]

---

(١) الإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرق: ٢٤٢.

(٢) وإذا الفجائية: هي الدالة على مفاجأة ما بعدها لما قبلها، أي: أن ما بعدها أتى مفاجأة. شرح ألفية ابن مالك: ٢/٢٥ – محمد بن صالح بن محمد العثيمين (المتوفى: ١٤٢١هـ) – مصدر الكتاب: دروس صوتية قام بتفريغها موقع الشبكة الإسلامية.

http://www.islamweb.net

(٣) النهاية في غريب الحديث والأثر: ١٨٧/٤ – مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد بن محمد بن محمد ابن عبد الكريم الشيباني الجزري ابن الأثير (المتوفى: ٦٠٦هـ) – الناشر: المكتبة العلمية – بيروت، ١٣٩٩هـ – ١٩٧٩م – تحقيق: طاهر أحمد الزاوى – محمود محمد الطناحي.

وكفر النعمة أي عدم شكرها. العين ٥ / ٣٥٦ – أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم الفراهيدي البصري (المتوفى: ١٧٠هـ) – المحقق: د مهدي المخزومي، د إبراهيم السامرائي – الناشر: دار ومكتبة الهلال.

وقد فصلت هذه الجملة عما قبلها لما بينهما من شبه كمال الاتصال [١] فكان سائلاً سأل ما سبب أن يكون النساء أكثر أهل النار؟ فكان الجواب: أنهن يكفرن.

ثم قيل: يكفرن بالله؟ ظناً من السائل أن المقصود بالكفر هو الكفر بالله فصحح النبي صلى الله عليه وسلم هذا المفهوم وقال يكفرن العشير.

وآثر البيان النبوي التعبير عن الزوج بالعشير[٢] لينبهنا إلى حق العشرة والمخالطة وأن هذا الحق مما يجب أن يحفظ ويصان، فهو صلى الله عليه وسلم أراد أن ينبه النساء إلى أن هذا الزوج له حقوق كثيرة ومنها حق العشرة والمخالطة، فينبغي ألا تغفل النساء عن هذ الأمر.

وعبر صلى الله عليه وسلم بالكفر دون الجحود تفظيعا من شأن من تنكر نعمة الزوج وفضله، حتى توهم السامع أنه كفر حقيقي، وهذا رغبة منه صلى الله عليه وسلم في حفظ حق الزوج.

والتعبير بـ "ثم" في قوله "ثم رأت منك شيئا" يدل على أن هذا الأمر الذي قد يعتري الحياة الزوجية من الشقاق وغيره قد يأتي من حين لآخر فهو ليس

---

(١) شبه كمال الاتصال، هو أن تكون الجملة السابقة كالورد للسؤال أو المنشأ له، فتفصل الثانية عنها كما يفصل الجواب عن السؤال.بغية الإيضاح: ٢٩٣/٢، علوم البلاغة «البيان، المعاني، البديع» للمراغي: ١٦٩، البلاغة العربية: ٥٩٥/١ – عبد الرحمن بن حسن حَبَنَّكَة الميداني الدمشقي (المتوفى: ١٤٢٥هـ)– الناشر: دار القلم، دمشق، الدار الشامية، بيروت – الطبعة: الأولى، ١٤١٦ هـ – ١٩٩٦ م.

(٢)العشير: الزوج. لسان العرب ٥٧٤/٤.

بدائم، لكن طبيعة المرأة تنسيها كل خير من هذا الزوج ولا تتذكر إلا هذا الأمر العابر اليسير.

وتنكير كلمة "شيئا" أفاد التقليل والتحقير، فدلت على أن هذا الأمر شيء يسير وقليل، فكان الأولى بها ألا تلتفت إليه.

وقد جاءت كلمة شيء في موضعها، فقد أراد صلى الله عليه وسلم أن ينبه النساء على أنه لا ينبغي أن يقفن على توافه الأمور، فلابد من التغاضي والتغافل عن هذه الصغائر.

والتعبير بـ "رأيت" فيه دلالة على أن هذا الزوج قد يكون قد فعل الخير الكثير، لكن هذه المرأة تعامت عنه لذلك قالت ما رأيت ولم تقل ما فعل.

وتنكير "خيرًا" للتقليل والتحقير أيضا، فقد قللت وحقرت من شأن هذا الخير حتى وصل إلى درجة الانعدام وذلك لأن النكرة في سياق النفي تعم [1]، فقد نفت هذه المرأة الخير كله قليله وكثيره وهذا أشد الجحود، لذا عبر عنه صلى الله عليه وسلم بالكفر.

وقد أكد البيان النبوي هذا النفي وذاك النكران بقوله "قط" فدل على الانتفاء التام والعام لهذا الخير.

---

(١)شرح التصريح على التوضيح أو التصريح بمضمون التوضيح في النحو:٢٠٩/١ خالد بن عبد الله بن أبي بكر بن محمد الجرجاويّ الأزهري، زين الدين المصري، وكان يعرف بالوقاد (المتوفى: ٩٠٥هـ) – الناشر: دار الكتب العلمية –بيروت–لبنان – الطبعة: الأولى ١٤٢١هـ– ٢٠٠٠م،أمالي ابن الحاجب: ٥٧٤/٢ – عثمان بن عمر بن أبي بكر بن يونس، أبو عمرو جمال الدين ابن الحاجب الكردي المالكي (المتوفى: ٦٤٦هـ) – دراسة وتحقيق: د. فخر صالح سليمان قدارة – الناشر: دار عمار–الأردن، دار الجيل–بيروت عام النشر: ١٤٠٩ هـ – ١٩٨٩ م.

الخاتمة

الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله، يا رب لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك ولعظيم سلطانك.

فبعد أن عشت فترة وجيزة في رحاب جانب من بلاغته صلى الله عليه وسلم توصلت إلى النتائج التالية:

- أن للتنكير دلالات متعددة ومختلفة يحددها السياق الذي يأتي فيه وقد وظفه النبي صلى الله عليه وسلم لخدمة الغرض الذي سيق من أجله حتى يبرزه ويحليه أمام السامعين، فتارة يأتي للتعظيم كما في قوله صلى الله عليه وسلم "بيوتهن خير لهن"، وتارة يأتي للتحقير كما في قوله صلى الله عليه وسلم "أيما امرأة سألت زوجها"، وتارة إلى غير ذلك من الأغراض المختلفة التي أفادها التنكير بمعونة السياق.
- توسعه صلى الله عليه وسلم في فنون القول حتى لا يمل السامع، فتارة يستخدم الحقيقة وتارة يستخدم المجاز كما في قوله صلى الله عليه وسلم "فحرام عليها رائحة الجنة" فقد استخدم هنا المجاز المرسل، وتارة يستخدم الكناية كما في قوله صلى الله عليه وسلم "أيما امرأة وضعت ثيابها في غير بيت زوجها".
- أن من أهم ما يميز بلاغته صلى الله عليه وسلم الإيجاز وذلك حين يستدعي المقام ذلك، وكيف لا وقد قال صلى الله عليه وسلم "أتيت جوامع الكلم " ويتجلى ذلك في غير موضع من البحث مثل قوله صلى الله عليه وسلم "ولا يدخل عليها رجل".

- استخدامه صلى الله عليه وسلم أسلوب التشويق في الأمور المهمة التي تحتاج إلى استثارة ذهن المخاطب وذلك في قوله صلى الله عليه وسلم "ثلاثة لا تسأل عنهم".
- دقة اختياره صلى الله عليه وسلم للفظ حين عبر مرة بالمرأة ومرة بالزوجة في قوله "لا تؤذي امرأة زوجها في الدنيا إلا قالت زوجته من الحور العين، وكذلك اختياره للفظة "دخيل" في الحديث نفسه.

وفي الختام أوصي الدارسين بالاستزادة من الدراسات البلاغية التي تتعلق بالبيان النبوي، كما أوصي بضرورة تدريس البلاغة النبوية لطلابنا وطالباتنا في الأزهر الشريف حتى ينهلوا من بلاغته صلى الله عليه وسلم ولا يحرموا هذا الشرف العظيم.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم.

١- الأدب المفرد بالتعليقات: محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري، أبو عبد الله (المتوفى: ٢٥٦هـ) - حققه وقابله على أصوله: سمير بن أمين الزهيري - الناشر: مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض - الطبعة: الأولى، ١٤١٩ هـ - ١٩٩٨ م.

٢- أسرار البلاغة: أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الفارسي الأصل، الجرجاني الدار (المتوفى: ٤٧١هـ) - قرأه وعلق عليه: محمود محمد شاكر - الناشر: مطبعة المدني بالقاهرة، دار المدني بجدة.

٣- الإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرق: عائشة محمد علي عبد الرحمن المعروفة ببنت الشاطئ (المتوفى: ١٤١٩هـ) - الناشر: دار المعارف - الطبعة: الثالثة.

٤- إعجاز القرآن والبلاغة النبوية: مصطفى صادق بن عبد الرزاق بن سعيد بن أحمد بن عبد القادر الرافعي (المتوفى: ١٣٥٦هـ) - الناشر: دار الكتاب العربي - بيروت - الطبعة الثامنة - ١٤٢٥ هـ - ٢٠٠٥ م.

٥- أمالي ابن الحاجب: ٥٧٤/٢ - عثمان بن عمر بن أبي بكر بن يونس، أبو عمرو جمال الدين ابن الحاجب الكردي المالكي (المتوفى: ٦٤٦هـ) - دراسة وتحقيق: د. فخر صالح سليمان قدارة - الناشر: دار عمار - الأردن، دار الجيل - بيروت عام النشر: ١٤٠٩ هـ - ١٩٨٩ م.

٦- الإيضاح في علوم البلاغة: محمد بن عبد الرحمن بن عمر، أبو المعالي، جلال الدين القزويني الشافعي، المعروف بخطيب دمشق (المتوفى: ٧٣٩هـ) - المحقق: محمد عبد المنعم خفاجي - الناشر: دار الجيل - بيروت - الطبعة: الثالثة.

٧- بغية الإيضاح: عبد المتعال الصعيدي (المتوفى: ١٣٩١هـ) الناشر: مكتبة الآداب -الطبعة: السابعة عشر: ١٤٢٦هـ-٢٠٠٥م.
٨- البلاغة العربية: ٥٩٥/١ - عبد الرحمن بن حسن حَبَنَّكَة الميداني الدمشقي (المتوفى: ١٤٢٥هـ)- الناشر: دار القلم، دمشق، الدار الشامية، بيروت - الطبعة: الأولى، ١٤١٦ هـ - ١٩٩٦ م.
٩- بيان إعجاز القرآن - مطبوع ضمن: ثلاث رسائل في إعجاز القرآن [سلسلة: ذخائر العرب (١٦)] أبو سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم بن الخطاب البستي المعروف بالخطابي (المتوفى: ٣٨٨هـ) المحقق: محمد خلف الله، د. محمد زغلول سلام - الناشر: دار المعارف بمصر - الطبعة: الثالثة، ١٩٧٦م.
١٠- البيان والتبيين: عمرو بن بحر بن محبوب الكناني بالولاء، الليثي، أبو عثمان، الشهير بالجاحظ (المتوفى: ٢٥٥هـ) - الناشر: دار ومكتبة الهلال، بيروت - عام النشر: ١٤٢٣ هـ.
١١- تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي: أبو العلا محمد عبد الرحمن بن عبد الرحيم المباركفورى (المتوفى: ١٣٥٣هـ) - الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت.
١٢- جواهر البلاغة: أحمد بن ابراهيم مصطفى الهاشمي - المكتبة العصرية ببيروت - علوم البلاغة ٢١٢ - أحمد مصطفى المراغي - أبناء شريف الأنصاري - صيدا - بيروت - ١٤٣٨ هـ - ٢٠١٧م.
١٣- دلائل الإعجاز: أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الفارسي الأصل، الجرجاني الدار (المتوفى: ٤٧١هـ) المحقق: محمود محمد شاكر أبو فهر- الناشر: مطبعة المدني بالقاهرة - دار المدني بجدة -الطبعة: الثالثة ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م.

١٤- سنن أبي داود: أبو داود سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير بن شداد بن عمرو الأزدي السِّجِسْتاني (المتوفى: ٢٧٥هـ) - المحقق: محمد محيي الدين عبد الحميد - الناشر: المكتبة العصرية، صيدا - بيروت.
١٥- شرح ألفية ابن مالك: محمد بن صالح بن محمد العثيمين (المتوفى: ١٤٢١هـ) - مصدر الكتاب: دروس صوتية قام بتفريغها موقع الشبكة الإسلامية http://www.islamweb.net.
١٦- سنن ابن ماجه: أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني، وماجة اسم أبيه يزيد (المتوفى: ٢٧٣هـ) - تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي - الناشر: دار إحياء الكتب العربية - فيصل عيسى البابي الحلبي.
١٧- شرح التسهيل المسمى «تمهيد القواعد بشرح تسهيل الفوائد»: محمد بن يوسف بن أحمد، محب الدين الحلبي ثم المصري، المعروف بناظر الجيش (المتوفى: ٧٧٨ هـ).
١٨- شرح التصريح على التوضيح أو التصريح بمضمون التوضيح في النحو: خالد بن عبد الله بن أبي بكر بن محمد الجرجاويّ الأزهري، زين الدين المصري، وكان يعرف بالوقاد (المتوفى: ٩٠٥هـ) - الناشر: دار الكتب العلمية -بيروت- لبنان - الطبعة: الأولى ١٤٢١هـ- ٢٠٠٠م.
١٩- شرح المفصل للزمخشري: ٣٥١/٣ - يعيش بن علي بن يعيش ابن أبي السرايا محمد بن علي، أبو البقاء، موفق الدين الأسدي الموصلي، المعروف بابن يعيش وبابن الصانع (المتوفى: ٦٤٣هـ) - دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان.
٢٠- صحيح البخاري: محمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري الجعفي -

المحقق: محمد زهير بن ناصر الناصر – الناشر: دار طوق النجاة (مصورة عن السلطانية بإضافة ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي)– الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ.

٢١– صحيح ابن خزيمة: أبو بكر محمد بن إسحاق بن خزيمة بن المغيرة بن صالح بن بكر السلمي النيسابوري (المتوفى: ٣١١هـ) – المحقق: د. محمد مصطفى الأعظمي – الناشر: المكتب الإسلامي –بيروت – بدون.

٢٢– صحيح مسلم: مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري (المتوفى: ٢٦١هـ)

٢٣– المحقق: محمد فؤاد عبد الباقي / الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت.

٢٤– الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز: يحيى بن حمزة بن علي بن إبراهيم، الحسيني العلويّ الطالبي الملقب بالمؤيد باللَّه (المتوفى: ٧٤٥هـ)–المكتبة العنصرية– بيروت – الطبعة: الأولى، ١٤٢٣ هـ.

٢٥– عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح: أحمد بن علي بن عبد الكافي، أبو حامد، بهاء الدين السبكي (المتوفى: ٧٧٣ هـ) – المحقق: الدكتور عبد الحميد هنداوي – الناشر: المكتبة العصرية للطباعة والنشر، بيروت – لبنان – الطبعة: الأولى، ١٤٢٣ هـ – ٢٠٠٣ م.

٢٦– علم المعاني: عبد العزيز عتيق(المتوفى: ١٣٩٦ هـ) – الناشر: دار النهضة العربية للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت – لبنان – الطبعة: الأولى، ١٤٣٠ هـ – ٢٠٠٩ م.

٢٧– علم المعاني دراسة بلاغية ونقدية لمسائل المعاني: د.بسيوني عبد الفتاح فيود – الطبعة الثانية١٤٢٥ – مؤسسة المختار للنشر والتوزيع.

٢٨- علوم البلاغة «البيان، المعاني، البديع»: أحمد بن مصطفى المراغي (المتوفى: ١٣٧١هـ).
٢٩- العين: أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم الفراهيدي البصري (المتوفى: ١٧٠هـ) - المحقق: د مهدي المخزومي، د إبراهيم السامرائي - الناشر: دار ومكتبة الهلال.
٣٠- الفروق اللغوية: أبوهلال الحسن بن عبد الله مهران العسكري - حققه وعلق عليه: محمد إبراهيم سليم - دار العلم والثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة - مصر.
٣١- القاموس المحيط: مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب الفيروزآبادى (المتوفى: ٨١٧هـ)-تحقيق: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة - الناشر: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشروالتوزيع، بيروت - لبنان - الطبعة: الثامنة، ١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥ م.
٣٢- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل: أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله (المتوفى: ٥٣٨هـ) - الناشر: دار الكتاب العربي - بيروت - الطبعة: الثالثة - ١٤٠٧ هـ.
٣٣- لسان العرب: محمد بن مكرم بن على، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعى الإفريقى (المتوفى: ٧١١هـ) - دار صادر - بيروت - الطبعة: الثالثة - ١٤١٤ هـ.
٣٤- مختصر صحيح الإمام البخاري: أبو عبد الرحمن محمد ناصر الدين، بن الحاج نوح بن نجاتي بن آدم، الأشقودري الألباني (المتوفى: ١٤٢٠هـ) - الناشر: مكتَبة المَعارف للنَّشْر والتوزيع، الرياض - الطبعة: الأولى، ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠٢ م.

٣٥- المستدرك على الصحيحين: أبو عبد الله الحاكم محمد بن عبد الله بن محمد بن حمدويه بن نُعيم بن الحكم الضبي الطهماني النيسابوري المعروف بابن البيع (المتوفى: ٤٠٥هـ) - تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا - الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت - الطبعة: الأولى، ١٤١١ - ١٩٩٠.

٣٦- مسند الإمام أحمد بن حنبل: أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني (المتوفى: ٢٤١هـ) - المحقق: شعيب الأرنؤوط - عادل مرشد، وآخرون - إشراف: د عبد الله بن عبد المحسن التركي- الناشر: مؤسسة الرسالة - الطبعة: الأولى، ١٤٢١ هـ - ٢٠٠١ م.

٣٧- معجم مقاييس اللغة: أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، أبو الحسين (المتوفى: ٣٩٥هـ) - المحقق: عبد السلام محمد هارون - الناشر: دار الفكر - عام النشر: ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.

٣٨- المعجم الوسيط:٨٥٢/٢ مجمع اللغة العربية بالقاهرة (إبراهيم مصطفى/أحمد الزيات/حامد عبد القادر/محمد النجار) - دار الدعوة.

٣٩- النهاية في غريب الحديث والأثر: مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد بن محمد بن محمد ابن عبد الكريم الشيباني الجزري ابن الأثير (المتوفى: ٦٠٦هـ) - الناشر: المكتبة العلمية - بيروت، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م - تحقيق: طاهر أحمد الزاوى - محمود محمد الطناحي.

٤٠- موقع الألوكة.